من كتاب :

الحاكمون بأمرهم

LES DICTATEURS

تأليف جاك بانفيل

بمناسبة وفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦

للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى

« أيها العظماء ! هل تريدون المجد ؟ موتوا »
فكتور هيجو

وهذا أيضاً رزء فادح نزل بفرنسا ، إذ لم يكد جاك بانفيل يتبوأ مقعده بين الخالدين فى كرسي الرئيس بوانكاريه فى مارس الماضى حتى اختطفته يد المنون من مجاسه الرفيع ؛ وهكذا فقدت فرنسا والمجمع فى ثلاثة أعوام متعاقبة ثلاث كفايات متقاربة . فذهب بوانكاريه « الذى لا يرتشى L'incomuptible » ثم ذهب «لويس بارتو» صاحب « ميرابو » وصاحب «دانتون» ، وأخيراً مات بانفيل

كان الثلاثة دعاة كبارا لمجد فرنسا ؛ ولكم شنوا الغارة على موجة الاشتراكية التى امداحت على أرض فرنسا فردتها خطوات واسعة إلى الوراء

كان بوانكاريه فى الحرب وفى السلم ، وفى قصر الأليزيه أو فى (الكى دورسيه) أو فى « المحكمة » فرنسياً وفرنسياً فقط ؛ وهكذا كان الشهيد « بارتو » حتى فى « مصرعه » أما بانفيل فقد كان قلمه قوة فوق القوى . . . ولما استقبله « دوناى » عميد الأكاديمية فى ٧ نوفبر الماضى قال له : « إن المجمع بخلى بينك وبين مقعد الرئيس بوانكاريه ، فلقد استطعت أن تقول للملأ الأعلى وللعالم أجمع ما كان يمنعه مركزه السياسى من أن يقول »

مات رجل كان فرنسياً من قمة رأسه إلى أخمص القدم . .
مات رجل كم حمل على إنجيل « سنت هيلين » ذلك الانجيل الذى دعا فيه بونابرت إلى خلق الدول التى زلزلت من بعد انعدام فرنسا فى الوجود . . مات أكبر أعداء ألمانيا !

فى كتابه عن « نابليون » وفى كتابه « تاريخ ثلاثة أجيال » ، وفى كتابه « تاريخ فرنسا » ، وفى « الجمهورية الثالثة » ، وفى « تاريخ ألمانيا » ، وفى حملاته الكبرى مع شارل موراس وليون دوديه أبطال الحكم الملكى كانت توضع « مقايسة » جديدة لانشاء جيل جديد

كنت أقرأ له منـــذ أيام آخر كتاب أخرجه للناس « les dictateurs » وكان يقعدنى العمل أو الكسل عن أن أنقل عنه كلمة للأدباء قراء (الرسالة) ، فلما مات وضجت لموته فرنسا ، ووقعت معارك « الاكسيون فرانسيز » ، وكان الاعتداء على زعيم الاشتراكيين « ليون بلوم » كان علينا أن نلخص كتابه للناس

* * *

وضع الناشر على الكتاب عبارة تنبيء عن غاية الكتاب قال : « لا تحكموا عليهم قبل أن تعرفوهم » وقدم المؤلف له بقوله « . . . الدكتاتورية ككثير من الأشياء قد تكون أسوأ نظام الحكم وربما كانت خير نظام ؛ ولئن كانت خيراً أو شراً فان الظروف تلجئ إليها أحياناً فيخضع الناس لها دون أن يكون لهم حق الخيار . . . فعلى الشعوب ألا تضع نفسها فى مثل هذه الظروف .. » وينقش المؤلف مايظنه البعض من أن الدكتاتورية اختراع ابتدعه العصر الحديث ، فما هى إلا سيرة معادة من سير العصور الغابرة ؛ ثم يعث عبثاً مريرا بأحد الساسة الذى أطلق على أول دكتاتور معاصر لقب « قيصر الكرنفال » فلربما كانت الدكتاتورية سدا يقام أمام طوفان الشيوعية الحمراء أو الدمقراطية الرعناء ؛ ولطالما كانت نداءاً حاراً للمساواة بين الناس ، أو لتهذيب شرة رأس المال ؛ وكثيراً ما كانت لاقرار نظام النقد إذا شالت به كفة الميزان

يهبط بانفيل بيحوثه إلى أعمق أغوار التاريخ قبل البلاد فيفتتح الكلام ببحث عن « طغاة الاغريق les lyrans » وأولهم أول مشترع عرفه التاريخ « صولون » ثم « بزكليس » ثم يعرج

الشخصى الذى يدفعنا نحو غاية أو يصرفنا عنها . وهذا التعبير ربما يظهر من أصل دينى صوفى ؛ وقد جاء التحليل النفسى الحديث مؤيداً له فان المرء حين يقضى فى أمر بقضاء ما ، يبدو كأنه تحت تأثير اتجاهات مختلفة ، إن ساد أحدها ارتفع صوته وصدر أمره . وإذا كان صوت الضمير مبعث الأمر والنهى فوخزه مصدر الندم والألم . وكم اتجه أشخاص نحو جلائل الأعمال امتثالا لأصوات ضمائرهم ! وكم انصرف آخرون عن الشر لأنهم عانوا وخز الضمير وما جلبه عليهم من شقاء وبلاء

(يتبع) ابراهيم مدكور

الثا[...] ى روما وأبطالها الأربعة « ماريوس » و « سيلا » و[...]بى » و « يوليوس قيصر » ، وفى مجالته عنهم يضرب الأمثال ويذكر العبر . فهذا « ماريوس » يجشم جيشه مخاطر الحرب فى « نوميديا بإفريقيا » ليثبت أقدامه فى روما تماماً ، مثلما يغامر « موسولينى » فى الحبشة ليقوى أسبابه لدى الطليان ... وهذان القنصلان « سيلا وبومبى » يخوضان إلى الحكم فى بحار من الدم . وهذا « قيصر العظيم » فاتح الغال ومصلح القضاء وعدو الترف فى أساليب فاشستية تذكر به أحفاد الرومان فى القرن العشرين فيديرون أعينهم نحو ذلك الطود الذى يسيطر على مصائر روما منذ أعوام

ثم يطوى التاريخ طياً ليقف بك أمام أول دكتاتور فى التاريخ الحديث فيسترعى نظره أن يكون « كرومويل » أول الدكتاتوريين ويكون فى نفس الوقت أول أبناء أمة تسمى «أم البرلمانات» ، وكأن الدكتاتورية ظاهرة تبدو مع الثورات دائماً أو مع الديمقراطية أو مع النظام النيابى

نائب كمبردج فى سنة ١٦٢٨ وقائد الخيالة فى معترك الثورة سنة ١٦٤٤ ، ذلك الفيلق الذى اشتهر باسم « الشاطئ الحديدى » والذى ارتفع على صهواته كرومويل إلى ذروة الزعامة المطلقة ، ذلك مثلما عبر هتلر على أكتاف القمصان السمراء ، وكما وصل موسولينى بقمصان سود ؛ فلما قتل شارل الأول واستتب الأمر للدكتاتور أعلن أن الحكم بمشورة الدين ، وفى ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ ذهب إلى دار النيابة يقول : « هيا يا قوم ... كفانا سفسطة » وحل المجلس وانفرط عقد المساكين وعلق بيده على باب البرلمان لوحة مكتوباً عليها « ... غرفة غير مفروشة للايجار !!! » لكن الأيام مضت والى الطاغية نفسه وحيداً فأعاد البرلمان ، وأخيراً بعد ١٤ عاماً من الحرب الأهلية مات كرومويل وعاد شارل الثانى بعد أن تعلمت الأمة أن الملكية خير وأبقى ، ولكن بعد أن تعلم الملوك درساً

وهذا هو الكردينال العظيم : أبو فرنسا وأبو الأكاديمية يضع يده على مقاليد الحكم فهى فوضى ما لها من قرار . فمن ملك حدث فى أكناف أم طائشة يهدد ملكه أمراء طامحون ، إلى أمراء يمكنون لسيادتهم فى الأرض كأنهم رؤوس تعلو مفارقها التيجان ، إلى نزاع دينى بين « الهيجنوت » والدولة . . كل ذلك فى الداخل ، أما فى الخارج فبيت هبسبورج تقدح عيناه بالشرر ؛ لكن الأب « ريشيليو » لا ينهزم ، فيبلغ السنوات الأولى من « وزارته » فى أخلد كفاح سياسى عرفه التا[ريخ] لوزير ، ويضرب الأمراء ضربات ليس فيها إشفاق ، ويقتلع [...] الهيجنوت من الأعماق ؛ وبعد أن يوطد دعائمه فى الداخل ، يـ[...] إلى النمسا بفيوض الحماسة الفرنسية لتنتصر عليها فى معا[رك] دامية ! . . كم رسم المؤلف من رائع الصور وأسماها لهذا الا[...] وهو محموم ومحمول على محفة متواصمة يتنقل فيها بين أطر[اف] الدولة ليستولى على قلعة أو ليخضع أميراً أو لينازل النمسا . . كل ذلك وهو فى « جفن الردى وهو نائم » فان الأمراء لم يتـ[...] له أقل من عشر مؤامرات دموية جهلاً منهم أن أنزع لا يـ[...] قلب كهذا القلب ، بل التهديد يسكب فى أمثاله فيضاناً من الحيـ[...] فلا يتردد فى أن يقتل من أحضان الملك صديقه (سانمار[...] و (دى تو) ليقدمهما إلى المقصلة لأنهما وأضرابهما (مجرد[...] من الطراز المبتذل » ثم لا يتردد فى أن ينفى من فرنسا أم [...] فرنسا ، وبمرسوم من الملك ! وبينما يلقاه الهيجنوت فظيعاً [...] الحرب ، يراه زعيمهم « دى روهان » بديعاً فى السلام .

هذا هو حاكم فرنسا المطلق ريشيليو

بعد ذلك صفحات مشرقة عن « الملك الشمس » الملك القائل « أنا الدولة » لويس الرابع عشر الذى حكم حكماً مطلقاً أكـ[ثر] من نصف قرن كلله أزهى عصور الملكية فى فرنسا أو فى التار[يخ]

ثم يعقد المؤلف فصلاً للكلام عن « وسائل الطغيـ[ان] المستنير » فعنده أن أصحاب الانسكلوبيديا ومنهم « ديدرو » لم يكن فيهم جمهوريون ؛ وحتى ڤولتير «Le roi Voltaire» كان يسميه فردريك الأكبر كان يفضل سلطة الفرد . أما صاحب العقد الاجتماعى الذى كان يفتى ويشير فى النظم والدسا[تير] فكان يرى الحكم الجمهورى صالحاً للدول الصغيرة ، أما الدو[ل] الكبرى فلم يكن يراه نافعاً لها بل فى العقد الاجتماعى دفاع [...] قليل دائم به « روسو » عن الحكم المطلق . وفى القرن الثا[من] عشر فلاسفة كبار كانوا يعتذرون عن الحكم المطلق حكم الفر[د] المستنير « نصير الاصلاح » الذى كان يسميه رينان le bon tyran أى الطاغية الطيب ، وإذا كانت الثورة قد قضت على هذا النظا[م] فان فرنسا عبدته فى شخص نابليون .. وفى الحق أنك لا تستطيع أن تنسى — فى عصرنا هذا — مقدار ما تحظى به من التأييد نظرية المفكرين الممتازين « المفكرين الأرستقراطيين » وسواه[م] أن التقدم لا يمكن أن يأتى من الجماهير بل هى تساق اليه ورا[ء] طائفة من « الأفراد » الكفاة . . . وكثيراً ما يكونون منها

وفى الثورة الكبرى طغى « روبسبير » فصار قطعة من بيان الثورة الدموية أو المجزرة ، لكأنى به جملة من اسمها مقدمة من منطقها فلولاه ما انتجت الثورة نابليون . . . ا أدراك ما نابليون ! ابن الثورة فى فرنسا ، وابن الجماهير فى ل الدنيا ؛ النجم الذى تلألأ فى الأفق على غير ميعاد ، والحلم ى طاف بأجفان الانسانية حيناً من الليل ثم صحت تتفقده ؛ لاعب الذى كان يحرك الملوك والشعوب على رقعة الدنيا كرقعة شطرنج ؛ الفاتح الذى كان ينثر الحرية ، ويبذر المساواة ، ويعلم علم ، فى المشرق والمغرب أنى أسال دم الفتوح ؛ المنشىء الأعظم الجامع الأجناس ، واضع تصميم أوربا الحديثة

لقد كان المستبد الهائل ، أو المستبد العادل ، أو الطاغية

كانت كل السلطات فى يديه ، وكان الخير يتفجر منهما والشر والجريمة أحياناً

كان مشرعاً يضع بنفسه (قوانين نابليون) ، وكان يدير دفة السياسة فى الدنيا ، وكان يحيط بالجحفل اللجب فى أسترلتز ويكتب إلى جوزفين ! ! وكان يصدر مرسوم الكوميدى فرانسيز وهو يتفجع أمام حرائق موسكو ، وينظر إلى صورة « النسر الصغير » نابليون الذى سماه ألد عداته وهو «شاتوبريان» : « شاعر يعمل » ؛ أو كما قال أوكتاف أوبرى : « ابن الثورة الأكبر الذى أنشأ الدنيا الحديثة على أنقاض ما هدمته الثورة من الدنيا القديمة » والذى بنى الدول حتى بعد أن مات ! ! فبعث إنجيل سنت هيلين من الموت : إيطاليا وألمانيا وغيرها فى القرن التاسع عشر ، ويوجوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلقان فى القرن العشرين ! ! حتى إذا فقد امبراطوريته فى قلب القارة دانت له أمبراطورية القلوب فى كل الدنيا فأصبح أغنية فى فم التاريخ وطنيناً فى سمع الزمن

أوليس من الفرنسيين كما قال « دوناى » من يقول اليوم : « ليته يعود ! » وهو هو الذى أجهد فرنسا وأضناها ؟ وهو هو الذى عبر عن نفسه بقوله : « أفلم يكن أفضل ألا أكون ولدت ؟ »

هكذا استهلت فرنسا القرن الماضى بأروع دكتاتورية عرفها البشر . ولما انطفأت شعلة « المارد القرشقى » وبعث من أعلى الصخرة انجيله فى سنت هيلين كانت من آياته « نظرية الجنسيات » التى أوصى المؤلف تجريحاً فى كتاب « تاريخ ثلاثة أجيال » لأنها أنشأت الدول التى زعزعت فرنسا فى القارة ، أما هنا فهو لا يناقش وإنما يعرض ويترك القارئ للاستنتاج ،

فيقدم اليه معجزة أخرى من معجزات الانجيل تلك هى تسنم ابن أخى نابليون رياسة الجمهورية ، ثم تتويجه نفسه مثل عمه امبراطوراً بالقوة فى ديسمبر سنة ١٨٥١ ولا يحمل على (نابليون الصغير) كما سماه هيجو ، فهو قد شرحه فى كتابه « تاريخ ثلاثة أجيال » بما نقله عن بسمارك لما أن قابله نابليون الثالث فى بيارتز فقال : une grande incapacité inconnue حالة عجز كبرى لا يعرفها الناس !

وهنا يعنى بانفيل بأن يلفت قارئه إلى طريقة احداث الانقلاب السياسى ، فيقول إن الانقلاب الذى أحدثه نابليون الصغير كالانقلاب الذى أحدثه نابليون الكبير ليجعل نفسه فنصلا عاماً ، كان يقوم على أيدى رجال فى يدهم الحكم لأن الانقلاب الناجح يجب له قوة حكومية ليستقر وليستمر

أما دكتاتورية نابليون الصغير فظلت فى الداخل طويلا ، ولكنها لم تنجح ، وفى الخارج أهدر الدم الفرنسى فى المكسيك وأنشأ مبدأ الجنسيات خصوصاً لفرنسا ، وكان الامبراطور نفسه يقول « كيف تظن أن الأمور تسير على قاعدة ؟ إن الامبراطورة ملكية ! وأنا جمهورى ! ! وليس هنالك بونابرتى إلا برزبى »

وجاءت حرب السبعين ؛ وانتهت قصة الامبراطورية ، وحاول Boulanger فى سنة ١٨٨٩ أن ينشىء دكتاتورية على أكتاف الباريسيين فلم ينجح لأنه نسى أن الانقلاب يجب أن يكون بمعرفة رجال فى دست الأحكام

بعد ذلك يرتحل بنا (بانفيل) إلى أمريكا اللاتينية رحلة تشبه المغامرات ، فيستعرض طغاة غلاظ الأكباد كمصارعى الثيران أو أشد فروسية وعجباً ! ! ويشرح لك عمل الماسونية وعمل القس فى التدمير والتعمير فى دقة تفوق حلاوة القصص وتسمو إلى حكمة التاريخ . وينتقل من المكسيك إلى أمريكا الجنوبية وبطلها (بوليفار) تلميذ الثورة الفرنسية وصاحب خطة « الولايات المتحدة الجنوبية » على نسق اتحاد الشمال ؛ هذا الجمهورى الواقعى الذى كان يقول « إن الديمقراطية المطلقة كالاستبداد المطلق ، كلاهما طغيان » . ثم يتحدث المؤلف عن دول أمريكا الجنوبية وطغاتها ، ففى كولومبيا ، وفى أورجواى ، وبورجواى وشيلى والبرازيل طغاة فى كل عشر سنوات ، وفى بوليفيا التى خلعت على نفسها هذا الاسم تمجيدا « لبوليفار » ، ثم فى الأرجنتين التى طغى فيها (روزاس) المصلح الفظيع ، دنا أحد المارة يوماً من بائع متجول يصيح : كستنا ! كستنا ! »